أثر القرآن في تطور النقد العربي

إلى آخر القرن الرابع الهجري

تأليف

الدكتور محمد زغلول سلام

قدم له الأستاذ

محمد خلف الله أحمد

الطبعة الثالثة

دار المعارف

مقدمة الطبعة الثانية

أحب فى هذه الطبعة من الكتاب أن يلاحظ القارئ أشياء لا ينبغى إغفالها : منها أن الطبعة الأولى قد اعتمدت على أصول خطية تم تحقيقها وطبعها بعد ظهور الطبعة الأولى مثل « كتاب مجاز القرآن » لأبى عبيدة ، و « مشكل القرآن » لابن قتيبة ، و « النكت فى إعجاز القرآن » للرمانى ، و « بيان إعجاز القرآن » للخطابى ، و « معانى القرآن للفراء » ، وتمت مراجعة هذه الطبعات على الكتاب والإشارة إلى ما اقتضى الإشارة .

كذلك كانت بعض الأصول الخطية التى اعتمدنا عليها فى الطبعة الأولى غير تامة ثم وقفنا على أصول أخرى لها أتم ، فاقتضى ذلك بعض الإضافات ، كما حدث بالنسبة لكتاب « النكت فى إعجاز القرآن » إذ أضفنا ما يتعلق بفصل « حسن البيان » .

وكذلك اقتضانا الأمر بعد المراجعة زيادات هنا وهناك ، وعلى الله التوفيق .

المؤلف

مقدمة

بقلم الأستاذ محمد خلف الله عميد كلية الآداب

بجامعة الإسكندرية

أ

من الميادين التى اتجهت إليها عناية الدارسين فى العصر الحديث ميدان النقد الأدبى عند العرب . وهو بصفة عامة ميدان ذوق الأدب العربى وتحليل نصوصه، وإبراز ما فيه من فن وجمال . وتعرف الأسس النظرية التى يقوم عليها ذلك الذوق وهذا التحليل .

وقد كانت الخطوة الأولى التى خطتها البحوث الجامعية المصرية فى هذا الميدان العناية بآثار مؤلفى النقد الأدبى من أمثال ابن سلام ، والجاحظ ، والآمدى ، والقاضى الجرجانى ،وأبى هلال العسكرى ، وعبد القاهر الجرجانى ، وغيرهم ممن كتبوا فى طبيعة الشعر والبيان العربى، والموازنة بين الشعراء ، وممن حاولوا تبويب فنون الصناعة الأدبية والكشف عن أسرار البلاغة والجمال فيها .

ثم جاءت الخطوة الثانية وهى البحث فى التيارات الكبرى التى كان لها أثرها فى تطور النقد والبلاغة العربية ، فاتجه بعض الباحثين إلى تعرف ما كان للثقافة اليونانية بصفة عامة ، وكتابى الخطابة والشعر بصفة خاصة — من أثر فى فلسفة الذوق العربى ، واتجه آخرون إلى الدراسات الحديثة فى النفس والجمال والاجتماع ،وما يمكن أن تلقيه من ضوء على طبيعة النقد الأدبى ومنابعه من النفس الإنسانية . ومسالكه إلى المشاعر والقلوب ، واتجه فريق ثالث إلى الدراسات

القرآنية فى مختلف نواحيها من مفردات وغريب ومعان ، ونظم ، وإعجاز ، محاولين أن يفسروا على هدى هذه الدراسات كثيراً من الظواهر التى اختص بها الذوق العربى الإسلامى الذى اتخذ من كتابه السماوى نموذجه الأول ومثله الأعلى فى البيان والتعبير .

وقد كان طبيعياً أن يأخذ قسم اللغة العربية بجامعة الإسكندرية بحظ موفور من هذه النواحى الجديدة فظهرت لأعضاء هيئة التدريس بحوث وكتب فى كل ناحية من هذه النواحى . والكتاب الذى نقدمه هنا للمكتبة العربية الإسلامية حلقة من حلقات تلك الجهود ، للأستاذ محمد زغلول سلام أحد النابهين من خريجى القسم ممن عرفوا فى حياتهم الجامعية بالإخلاص للعلم والجد فى الطلب ، والجمع فى الدراسات العربية بين منطق العلم وذوق الأديب ، والكتاب فى أساسه بحث قدمه صاحبه لجامعة الإسكندرية ، وأحرز به درجة الماجستير مع مرتبة الشرف الأولى . وقد وفق الأستاذ زغلول فى هذا البحث فرسم صورة علمية واضحة للجهود الأولى التى بذلها علماء الإسلام منذ نهاية القرن الثانى إلى القرن الرابع الهجرى فى كشف خصائص الأسلوب القرآنى ، فى لغته ونظمه وطرائق تعبيره ، وفى الاهتداء إلى أسرار بلاغته وإعجازه وتأثيره فى النفوس ، وعلى أساس هذه الصورة العلمية حاول أن يحقق الصلة بين هذه الجهود والجهود التى كان يبذلها هؤلاء العلماء وغيرهم فى بحث خصائص الأدب العربى وأسرار جماله وبلاغته وأن يبين مدى ما كان بين هذه الدراسات وتلك من تأثير متبادل .

٢

وبعد فماذا كانت طبيعة تلك الصلة ومظاهرها خلال العصور ؟

من المعروف تاريخياً أن العرب حين سمعوا القرآن تأثروا به تأثراً شديداً ،

ووقفوا أمام روعة نظمه موقف الإعجاب والذهول والحيرة ، وعبر غير واحد من زعمائهم عن بعض نواحى هذا الموقف فى مثل قول عتبة بن ربيعة حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم الأجزاء الأولى من سورة فصلت ، ثم عاد إلى قومه فسألوه ما وراءك يا أبا الوليد ؟ فقال : « ورائى أنى سمعت قولا ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه » . وفى مثل قول الوليد بن المغيرة : « والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة » .

وفى كتب السيرة كثير من أمثال هذه الروايات وكلها تتفق فى بيان ما كان للقرآن من وقع فى قلوب العرب وفى توضيح أثره البلاغى فى نفوسهم .

وقد لجأ بعض المعاندين إذ ذاك إلى المكابرة وقالوا : « لو نشاء لقلنا مثل هذا » فأمر الرسول بأن يتحداهم أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ،أو بسورة من مثله ، وأن ينبئهم أنهم لا محالة عاجزون وأنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . وقد صدق الله وعده ، وثبت عجز هؤلاء القوم أهل الفصاحة واللسن أمام تحدى هذا البيان العربى الفصيح المنظوم بلغتهم ، والجارى على نهج أساليبهم وصورهم ، وثبت الإعجاز ، وتمت المعجزة ، وصدقت الرسالة .

ظاهرتان إذن وثيقتا الصلة بالحياة الأدبية العربية ، برزتا منذ بدء الدعوة الإسلامية : أولاهما هذا الكتاب العربى المبين الذى تمت له الصدارة على كل ما أنتج العرب وينتجون من أدب وبيان ، والذى هو فى الوقت نفسه دستور الحياة وميزان السلوك والأصل الأول للتشريع . ومن الطبيعى أن تتجه أذهان المسلمين أول ما تتجه إلى العناية بهذا النص ، لشرح ألفاظه وتفسير آياته وتعرف أساليبه وتبين مغازيه واستنباط الأحكام منه . وكثير من هذه النواحى يدخل فى صميم ما نسميه وتسميه الآداب الأخرى « نقد الأدب » وإن كنا تأدباً مع القرآن

الكريم نفضل له اسماً آخر من الأسماء التى أطلقتها الثقافة العربية على هذه الدراسات . ولعل هذا كان من الأسباب التى حدت بعلماء المسلمين ممن ألفوا فى صناعة الأدب إلى العدول عن لفظة « النقد » لما تتضمنه هذه اللفظة من ذكر المحاسن والمساوئ وإصدار الحكم على النص المنقود .

أما الظاهرة الثانية التى جدت مع الإسلام على الحياة الأدبية النقدية عند العرب فهى ظاهرة الإعجاز البلاغى ، وقيام الرسالة السماوية عليه ، وهى ظاهرة لم تعرفها الآداب الأخرى ، ومن الطبيعى كذلك أن يشغل علماء العربية بها ، وأن يستعملوا أذهانهم وعبقرياتهم فى دراستها ، وأن يستعينوا على هذه الدراسة بكل ما يلزمها من أدوات ، وبكل ما يستحدثون من مناهج وثقافات . وظاهر أنها فى صميمها دراسة نقدية من الطراز الأول : فهى تعتمد على بحث الأساليب وتعمق أسرار البلاغة ، والموازنة بين ألوان الكلام الرفيع .

منذ بدء الحياة الإسلامية إذن ، أخذ القرآن مكان الصدارة بصفة كونه النص الأدبى الأول لهذه الأمة ، والكتاب المبين المعجز ، هذا إلى كونه وحى السماء وأساس التشريع والقانون المنظم للسلوك ، والمرشد الموجه إلى معالى الأمور . وإذا اجتمعت هذه الظروف لكتاب فمن الطبيعى أن يصبح محوراً لأهداف الفكر والتأليف فى الأمة ، وينبوعاً للكثير من جداول ثقافتها ، وحافزاً على العناية بكثير من فروع العلم ، التى يمكن أن تعين على فهم هذا الكتاب وإدراك أسراره . والتاريخ يحدثنا أن هذا كان شأن القرآن من الثقافة العربية الإسلامية ، وأن دراسات القرآن كانت العامل الأكبر فى العناية بتدوين اللغة وجمع الشعر ورواية الفصيح ، وبحث طرائق اللغة فى التعبير ، وأساليبها فى البيان .

على هذا الأساس الذى وضعناه مستمداً من واقع الأمر ومصادر المعرفة نستطيع أن نسير فى موضوعنا سيراً تاريخياً ، فنستعرض موجات التأليف النقدى عند العرب ، ومراحله المهمة خلال العصور ، وما كان لدراسات القرآن من شأن فيها .

٣

ولن نطيل الوقوف عند المرحلة الأولى من حياة الفكر الإسلامى فى القرن الأول الهجرى ومعظم الثانى ، فليس لدينا من مؤلفات تلك المرحلة شىء نستطيع أن نعتمد عليه فى البحث .

ولكن المرحلة التالية التى تبدأ من نهاية القرن الثانى ، وتستمر خلال القرن الثالث ، مرحلة مهمة فى الموضوع لغنى ثروتها فى ميدانها : ففيها ألّف ابن سلام كتابه النقدى فى « طبقات الشعراء » والجاحظ كتابه « البيان والتبيين » ، وابن قتيبة كتابه النقدى فى « الشعر والشعراء » ، والمبرد كتابه « الكامل » فى تحليل النصوص العربية وشرحها وموازنتها . هذه الكتب كلها مطبوعة موجودة بين أيدينا ، وهى كتب تتناول نواحى من النقد العربى من جهتيه النظرية والعاملية ، وفى كلا فنيه المنظوم والمنثور . ولكن بجانب هذه الثروة المطبوعة ثروة مخطوطة فى الغالب ، لم تصبح فى متناول أيدينا إلا فى السنوات الأخيرة ، وهى جزء من ثروة كبيرة من الدراسات القرآنية فى تلك المرحلة مما أشار إليه الفهرست لابن النديم وغيره من كتب المراجع . وأهم هذه المخطوطات فى موضوعنا «كتاب مجاز القرآن» لأبى عبيدة أحد أعلام الرواية الأدبية والمتوفى سنة ٢٠٩ هـ ، وكتاب « معانى القرآن » للفراء أحد أعلام النحو والمتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، وكتاب « مشكل القرآن » لابن قتيبة أحد أعلام الأدب والبيان والمتوفى سنة ٢٧٦ هـ .

أما الكتاب الأول فقد كان محاولة فى تفسير غريب القرآن ، وفى بيان نهجه أو مجازه فى التعبير ووجوه نظمه التى يوجد مثلها فى كلام العرب ، من إضمار الكلمة ، أو الاستغناء عن تتمة الجملة أحياناً أو بإرجاع اللفظ لواحد من اثنين